الرِّوَايَّة العرَّبيَّة: وتفكيك أيديولوجيا السُّلْطَة

بشير مفتي: وتعرية الوجه القبيح للسلطة في"دمية النار"

ممدوح فرَّاج النَّـــــــابي
ناقد مصري – تركيا

تعدُّ رواية بشير مفتي "دُمية النَّار" الصَّادرة عن الدَّار العربية للعلوم ناشرون، ومنشورات الاختلاف2010، نموذجًا للروايات التي تسعى لتفكيك أيديولوجيا السُّلْطة أيًّا كان نوعها، سياسية مثل رِوَاية الكرنك لنجيب محفوظ، والزيني بركات لجمال الغيطاني، ونساء البساتين للحبيب السَّالمي، وغيرها من الرِّوَايات، أو دينية على نحو ما فعل يوسف زيدان في رواية "عزازيل" أو سلطة بطريركية أبوية، كما فعلت ميرال الطحاوي في "الخباء" وسحر الموجي في "دارية" وعفاف السِّيد في "السِّيقان الرفيعة للكذب".

–1–

"دُمية النَّار" روَاية تُعَرِّي السُّلْطة السِّياسية وممارستها الفجَّة من أَجْل الإمساك بزمام الأمور، وذلك من خلال رَصدها لمعاناة أسرة كاملة وقعت أسيرة لِلُّعْبَةِ السِّياسة القذرة، فيتحول أفرادها تباعًا إلى أداة غاشمة سَاهمت في تغوُّلِ السُّلْطَةِ، إلى أن ينتهي مصير هذه الأسرة إلى التدمير، سواء بالقتل كما حدث مع الأب، أو بالمصير الغامض الذي ينتظر الابن. الرِّواية في الجزء الخاص الذي جاء على لسان "رضا شاوش" بمثابة نفض الغبار عن تلك الألاعيب والممارسات الخفية التي قامت بها هذه الجماعة، تحت مظلة الحفاظ على هيبة الدولة، عبر سيرة هذا الشخص المدعو "رضا شاوش"، منذ ولادته في حي شعبي اسمه "بلْوَزْدَادْ" وطفولته التي لا يستحضر منها سوى ومضات تُذَكِّره بقسوة أبيه ومعاملته السيئة والقاسية لأمه، وفي أحيان ضربها، وربما كانت هذه الصُّورة القاسية عاملاً يُفَسِّرُ حالة الانطواء التي عاشها، فقد خَرَجَ من حياته بلا أَصْدِقاء باستثناء الدكتور عدنان. ورغم تلك المعاناة التي حفرت في ذاكرته ألَمًا خاصًا إلا أنه كان متفوقًا في المدرسة، شغوفًا بالقراءة نالَ رضا معلميه خاصة معلمة اللغة

العربية التي خصته بمعاملة خاصة ومدَّته بالكتب من مكتبتها الخاصة، وبفضل القراءة صَار ينظر للعالم من خلال الأدب لا غير.

كما أن الاعترافات التي توالت من قبل شخصيات النَّص، بمثابة وثائق خطيرة عن فترة حَرجة في تاريخ الجزائر، فترة ما بعد الاستقلال، التي تولَّى فيها الرئيس "هَواري بومدين" مقاليد الحُكْم وما أَعْقَب فترته من التباس بين صفوف الثوريين والمجاهدين، فتحوَّلوا من أقصى اليسار إلى أقصى اليمين، أو تحوَّل المناضل الثوري إلى جَلادٍ ينتظرُ ضحيته ليحفظَ مكانه. العجيب أن هذه الجماعة السِّرية تشكَّلت بهدف وطني نبيل هو المطالبة بالاستقلال، وما إن تحققَ هذا الاستقلال حتى وجدت هذه الجماعات السِّرية نفسها في قلب اللُّعْبة السِّيَاسيَّة، وبدلاً من أن تتخلَّى عن الدور السِّري بعد أنْ انتهى الغرض الذي تشكَّلت من أجله، استمرت في نفس الدور وبنفس ألاعيبها في تصفية المعارضين لها ولسياستها التي بدت تُعلن عن مَصالحها الخاصة. وقد كان رجال هذه المنظمة السِّرية أوفياء ينفذون الأوامر بدقة، معتقدين أنهم يفعلون هذا من أجل مصلحة البلد (الرَّجُل السَّمين وسعيد بن عزوز)، أو لإيمانهم بالزعيم (والد رضا)، لكن ما إن اُكْتِشفَ الغرض الدنيء، حتى حاول البعض الابتعاد بادعاء الجنون كما فَعَلَ والد رضا، أو التنصُّل من هذه الأعمال كما في حالة الرَّجُل السَّمين لاحقًا، في محاولة للخلاص أو إلقاء دمية النَّار على هذه الجماعة لكن مع الأسف كان مصيرهما التصفية، حتى لا تتدحرج دميَّة النار فتطول الجميع.

في ظل هذه الأحداث الملتبسة بالتاريخ، تأتي هذه الرِّوَاية كشهادة أو وثيقة حيَّة عن المسكوت عنه في فترة حرجة من تاريخ الجزائر أعقبت مرحلة الاستقلال، وللأسف انتهت بحرب أهلية في الثمانينيات كان الإسلاميون أنفسهم ضحيتها. ومن ثم فالرِّواية وكأنها إجابة عن تساؤل كبير مفاده: ماذا حدث؟ وأين موطن الخلل؟ بعدما سعت الأيديولوجية المناصرة لهذه الفترة، لإضفاء الطابع الرومانسي الغنائي عليها. لهذا تبدو الرِّواية في صورتها البسيطة بمثابة هتك لتلك الممارسات الغير شرعية، وما أعقبها من انقسامات وتمزُّق في الهوية، وفقدان لـــ "الروح التي لم تَعُدْ روحًا بعدما أصابها الفقد".(ص 118).

–2–

عن الحياة السِّرية والأدوار القذرة لرجال الظلام والظل، والفخاخ التي نُصبت للصغار جاءت الاعترافات التي تبدأ برضا شاوش وهو على وَشْك مرحلة النهاية، بعدما فقد روحه وفقد كل شيء: رانية المسعودي وذاته التي ضاعت، وابنه الذي عرفه في لحظة افتقاده، فما تركه البطل من مذكرات

للمؤلف يدخل في هذا الإطار، وهو بمثابة محاولة للتكفير عما فعل، وتطَّرد هذه البنية داخل النص وإن كانت بتنويعات مختلفة، فالأبُ فعلها عندما ادَّعى الجنون ليهربَ من وزر المنظمة التي كان يحميها واكتشف بولائه لها أنه ارتكب آثامًا كثيرة ليس آخرها أو أفدحها انتحار والد الضابط "سعيد بن عزوز" عندما أجبرته السُّلْطة على أن تمارس آلته القمعية ضغطها من أجل الاعتراف وقد وَصَل الأمر بتهديده بزوجته فانتحر الرجل لشعوره بالمهانة والمذلة. حالة الاعتراف التي بدأ عليها الأب، بعدما اكتشف التزييف الذي مورس عليه، صحبها ثمة تغيُّرات في شخصيته كما ذكر الابن "حيث صار يبدو مسالما، وطيبًا لأبعد حدٍّ، ولهذا شعرتُ أنه عندما مرض دخل في حالة من الصَّفاء العجيب" (الرواية: ص28)، وتبدت أيضًا في رقته التي كانت على غير عادته مع زوجته التي كان لا يتوانى في إلقائها بالحذاء عند غضبه عليها. وبالمثل اعتراف "سعيد عزوز" نفسه للرِّاوي أنه كان يكرهه بسبب تفضيل معلمة اللغة العربية له، وإن كان الكره سببه ما فعله أبوه كما عرف فيما بعد، وكذلك اعتراف الرَّجُل السَّمين له بأن أباه لم ينتحر وإنما قُتِلَ وبيده، لأنه خرج عن السيستم الذي أعده النظام، والاعتراف الأهم له بطبيعة المنظمة وخروجها عن المسار الذي أُنْشِئت من أجله: "بعد الاستقلال، التقينا، وتحدثنا، وكانت الفكرة تأسيس جماعة في الظِّل تحمي البلاد وتُسَيِّرُهَا من خلف ستار..(..) لماذا سَارت الأشياء بعدها عكس ذلك، لقد حاربنا في البداية المعارضين العملاء للامبريالية، ولكننا أصبحنا العملاء، نحن مَنْ يخدم مصالحهم، ونُسَيِّرُهَا لهم، ونأخذ بعض الفتات (..) الحقيقة، إنني نادم على بعض الحوادث التي ارتكبتها بنفسي، ليس نادمًا، ولكنني ناقمًا (ناقم) لأنه كان يمكن عدم فعلها دون أن يختل أي شيء ....تصوَّر لقد صفينا رجالاً ظننا أنهم خطر على أمن البلاد، ولكننا بداخلنا كنا نعرف أنهم ليسوا خطرًا بالمعنى الكبير إلا على مصالحنا نحن، كانوا ضد زعامة الرئيس الواحد، كانوا يؤمنون بالحرية، وأشياء من هذا القبيل" (ص: 128،127). وأخيرًا اعتراف رانية المسعودي حبيبته التي اغتصبها لينالَ منها عنوة ما حرمته طائعةً، بأن له ابنا منها، وقبلها اعترافها بأنها لم تنسَ تلك الوشاية التي وشي بها لأخيها وما أحدثته من أثر كبير في تغيير مَسَار حياتها بعد تركها المدرسة. يشير توالي هذه الاعترافات داخل النَّص، إلى أن معظم الشخصيات كأنها جاءت لتقف أمام منصة الاعتراف لذا تُعَدُّ الاعترافات نوعًا من التَّطَهُّر، أو تصحيح التاريخ لهذه الفترة.

–3–

حرص المؤلف "بشير مفتي" منذ الاستهلال الذي صدَّره بعنوان "الروائي"، على إحداث نوع من التغريب أو الإيهام للنص من الجهة التجنيسية، فهو لا يريد أن يُقدِّمَ نصًّا مجَانيًا، يَسْهُلُ تصنيفه،

فالمؤلف عَمَدَ إلى عدة وسائل بشأنها تعمل على الإيهام بأن النَّص خارج عن التصنيف السِّير ذاتي، أوَّل هذه الوسائل، هي تقديم شخصية بطله "رضا شاوش" بنوع من الغموض، فمنذ أن تمَّ اللقاء بينهما عند عمِّ العربي، يصفه هكذا: "عرفت رضا شاوش وقد تجاوز الثلاثين بأربع أو خمس سنوات، كان يبدو أكبر من سنه، دقيق الملامح وذا وجه يثير الحيرة والتساؤل، غير أن ما شَدَّني إليه لم يكن شكله، ولا نظراته المرتابة من الآخرين، ولا لأنني لاحظت أنَّه كان يطأطئ رأسه باستمرار كلما سقطت نظرة غريب يحب الكلام في الأدب(..) تكهنت له بالانتحار لاحقًا، لقد كان مثل تلك الشخصيات الروائية التي تمتلك ماضيًا معقدًا، وتجربة مرَّة في كلِّ شيءٍ، وهي على شفا جَرْفٍ من السقوط في أرضِ الليل التي لا قَرار لها (..) تخيّلته بطلاً تراجيديًا يصلح للموضوعات التي كنتُ أرغب في كتابتها، قلق ميتافيزيقي حَاد، وانحلال في الرّوحِ، وسوء تكوينٍ مُهْلك، وجروح قديمة لا تندمل" (الرواية: ص 6). هذه الصُّورة التي رَسمها، وما صَاحبها من ظهور واختفاء لصاحبها على مستوى الواقع، وتلك النهاية التي رسمها (ستتحقق بالفعل)، بمثابة إيهام بِبُعْد الشخصية عنه، وأن المؤلف بالفعل يتحدث عن شخصية حقيقية لها صِلَة بالواقع المرجعي. ويستمر المؤلف في عملية الإيهام المقصودة عبر تضمين النَّص برسالة من هذه الشخصية "رضا شاوش"، مكتوبة بخط مختلف عن باقي أجزاء النَّص، كدليل آخر على عملية الإبعاد، واستحالة الربط بين الراوي والبطل الذي تأتي تفاصيل حياته في الجزء الثاني المعنون بـــ "رضا شاوش"، وزيادة في عملية الإيهام، لا يكتفي المؤلف بفصل ما كتبه عن المخطوطة التي تركها هذا الشَّخص المدعو رضا شاوش له، في جزء مستقل، وإنما يؤكد في مقدمته التي هي بمثابة شرح للمخطوطة، بأنه لم يتدخل فيها "دون زيادة أي حرفٍ " (الرواية: ص 21).

مع نجاح هذه الطرائق التي اعتمدها المؤلف في التغريب والإيهام، نتساءل: **ما الدافع من هذا؟** هل من الممكن أن نقتنع بأن حذر المؤلف من تجنيس النَّص بأنَّه "سير ذاتي" كان هو الدافع؟! بالطبع لا، فالكاتب لا تعنيه مثل هذه الأمور، وإذا كان حريصًا على ألا يوصف بمثل هذا الوصف، فليكتب تنويهًا بأن"النص أساسه الخيال وأي تشابه بينه وبين الواقع إنما هو من قبيل الصُّدْفَة وغير مقصود". أعتقد أننا أمام مؤلف يعي ما يكتب جيدًا، رغم ما أثاره نصه من جَدَلٍ عنيفٍ، خاصة إبان تصدّره للقائمة القصيرة لجائزة البوكر2011 ومقارنة نصه بما كتبه الألماني هيرمان هِسه في رواية "ذئب البوادي" من ناحية الشَّكْل، بل دلَّل البعض على أنه استعارَ البداية أيضًا. الحقيقة أن المؤلف ينتهج شَكْلًا جديدًا هو شكل الرِّوَاية داخل الرواية، من وجهة نظرنا، أما لماذا؟ فالمتأمل في سياق النَّص يكتشف أن النص بمثابة فضح لسلطة سياسية مازال بعض رجالها مستمرين في مواقعهم، لذا أراد أن يبتعد عن المساءلة

القانونية، بِنَسَب هذه الحقائق لشخصٍ مجهولٍ، فيمرِّر ما يريد تمريره من آراء وحقائق ربما تغضب الكثيرين، ولاسيما المنتفعين. وثانيًا، وهذا هو الأهم، أن المؤلف يريد تثبيت ما روي على لسان رضا كحقائق، لا مجرد خيال مبالغ فيه، فلربما ظنَّ البعضُ لو جاءت في صيغة رواية خَيالية أن بها من المبالغات، خاصة أن هذه الفترة التي تتخذ منها الرِّواية إطارًا مرجعيًا، كَتَبَ عنها كثير من الروائيين أدبًا رومانسيًا، وبهذه الصدمة المقصودة أراد الكاتب أن يزيل الغشاوة التي وُضِعَتْ على العيون بفضل كُتَّاب السُّلْطة، وأجهزتها الأيديولوجية المختلفة.

–4–

صاحب صعود "رضا شاوش" إلى الجانب الآخر الآمن كما كان يظن، مجموعة من التحولات، جاء بعضها نتيجة لظروف أسرية (طبيعة الأب المتسلطة، ووظيفته في مؤسسة العقاب)، وبعضها ذاتي (إخفاقاته في الدراسة والحب) وبعضها لظروف سياسية (الاستبداد وانعدام الحرية)، وإزاء هذه الظروف تحوَّل مِنْ ناقم على السلطة، وفسادها في صورة أبيه الذي يحبُّ الرئيس بومدين ويؤمن به ويصدقه "ويعتبر نفسه جنديًا في خدمة تعاليمه، مناضلاً في جهاز سلطته، رقمًا له دور في هذا العالم الذي يحكمه بيد من حديد" (ص 32)، إلى رقم وترس ضمن تروس النظام، رغم أن الله ساق إليه معلمه السياسي ووالده الروحي "عمي العربي" كما كان يناديه. وبما كان يعتنقه من أفكارٍ مناقضة لرؤية والده، فكان يسخر من الرئيس بومدين ويمقته أشدّ المقت، وإن كان يعترف بما حققته اشتراكيته من مجانية للتعليم ما عدا ذلك فهو يراه "قمة الغرور الذي تصنعه عظمة القوة لتكسر عظمة الشعوب" "(ص37).

وأثر هذه التحولات واضح في علاقته برانية المسعودي، لما تمثله من أهمية ليس على صعيد العلاقة بينهما وما شابها من إخفاقات وخيبات ثم انتكاسات، وإنما لدلالتها في الكشف عن طبيعة التحولات التي أصابت شخصية رضا، بتداخل الذاتي مع الأيديولوجي مع التاريخي المعقد، لينتهي نهاية متطرفة، فَمِنْ شَخْصٍ مثالي رومانسي يقرأ الكتب، ينتهي به المطاف إلى وحش يغتصب مَنْ أحبَّ، ثم في مرحلة لاحقة إلى قاتل مأجور، أو أداة في يدِ السُّلطة، على غير ما توقَّعَ له أخوه، بأن يصيرَ فنانًا أو أديبًا. العلاقة بينهما تأتي في صورة رغبة ونفور، رغبة من قبل رضا ونفور من قبل رانية، وفي مقابل صدودها تتحوَّل الرغبة إلى تدمير، بعد علمه (بمساعدة الضابط سعيد بن عزوز) بمكانها وهروبها مع زوجها، بعيدًا عن دناءة عالم أخيها كريم وعالمه (هو)، فما إن يعرض عليها حبه وترفضه، حتى يُقْدِمَ على اغتصابها بوَحْشيةٍ، ويتركها تواجه مصيرها العدمي، وعالمها الذي بدأ في الانهيار. تمثِّلُ لحظة

الاغتصاب لحظة حدّية وفارقة لكلاهما، حيث ـــانقادت "رانية" في درب من المهانة والتعذيب النفسي للجسد بامتهانها الرَّقْص في كَبَاريه، ثم بزواجها من سعيد غريم رضا، ثم انضمامها للمنظمة لإرغام مَنْ يعجزون عنه، وكذلك على "رضا" الذي يقول "وشعرت وأنا أخرج من بيتها بأنني خلاص تغيَّرت، صِرتُ شَخْصًا جديدًا بالفعل، وأنه يمكنني أن أفعل أي شيء أريده فلم يعد هناك ما يخيفني في الوجود، وأنني من تلك اللحظة قد ذهبت للضفة الأخرى من العالم" (112،111)، وقد تبدو هذه اللحظة لي بكل فظاظتها وقسوتها (لاحظ مفردات الوصف: ظلام العالم / حيوان مفترس / كالبركان / ذئب منهار / يصرخ / عيناي احمرتا / توقدتا) بمثابة اللحظة الكاشفة أمام نفسه بأنه صار في طريقهم، وما فعله كان بمثابة التطبيق العملي لتلك المبادئ والأفكار التي استقاها من جلساتهم، والتي يشعر بالتقزُّم والتفاهة أمامها، والتي مفادها بأن "ما لا تحصل عليه تلوثه"، وهو ما تحقق لحظة الاغتصاب، وهو ما يعني انتصار السلطة (منظومة الفساد)، ونتيجة هذا صار "شخصًا ينفذ الأوامر ويعيش بلا ضمير» فاقدًا لقيمه، جسدًا بلا روح حتى إنه يعترف " صرت أبي بشكل لا واعٍ" مع أنه هرب من هذا الماضي إلا أنه أيقن أخيرًا بأنه « مرتبط به بخيط سحري، ومندمج حتى العظم بداخل تلابيبه" (ص 122)

–5–

مع كم التحولات والتغيرات التي أصابت بنية المجتمع الجزائري من سيء إلى أسوأ، والتي خرج على إثرها كريم أخو رانية المسعودي من السجن حاملاً للدعوة يأمر بالمعروف، وهو التحوَّل الذي طرأ عليه إِثْر مقابلته للشيخ أسامة، في إشارة دالة لنهوض الحركات الإسلامية واضطلاعها بدورٍ مُهِمٍّ، وإن كان تحوَّل إلى بركان عنيف في أحداث 88، وخاصة في ظل صعودهم للسلطة، وهو ما قابلته المؤسسة العسكرية باعتراض شديد، انتهى إلى القتال الذي شبَّ في الجزائر، العجيب أن المذكرات تشير إلى أن هذه الجماعات لم تكن وليدة نفسها وإنما قامت بما قامت به بتحريض وبأيدي هذه الجماعات السِّرية. مع كل هذا إلا أن بعض الشخصيات قاومت أو صارت إشكالية بمصطلح "لوسيان غولدمان" والأبرز على هذا شخصية عدنان الماركسي الصديق الوحيد لرضا، فهي واحدة من الشخصيات المتسقة مع ذاتها، فمع أنه كان يعيش مع زوجة أبيه المتعسفة إلا أنه بفضل ثقافته وإيمانه بالأفكار الماركسية ودفاعه عنها، عاش حالة من الوئام، حتى إنه صار بمنأى عن مواجهة ما كان يسميه بـــ"استبدادية العائلة"، لكن لم يمنعه هذا من عدم معارضة "استبدادية النظام" عبر المقالات التي كان يكتبها أثناء وجوده في منفاه الاختياري، حتى عندما أرادت الجماعة الظلامية الضغط عليه استطاع أن يصمد ولا يرضخ لهذه

الادعاءات، وهو ما يمثل الخروج من هذه الدائرة أو النسقية المحكمة فمعارضته لاستبدادية النظام بمثابة الخرق لهذه الدائرة، أو البديل لعالم أفضل، بدلاً من هذه الأجواء الكافكاوية، التي سورَّت بها السلطة المجتمع، ومن أراد الخلاص بالتحرّر من هذه الدائرة سَقَطَ فيها كما حدث مع رضا الذي أراد أنْ يتحرَّر من دائرة الأب فسقط في نفس الدائرة مع فارق أن الأب لمـــَّا عَلِمَ نأى بنفسه، أما هو فمع علمه إلا أنه توغَّل حتى صار أشبه بمصاصي دماء دراكولا على حدِّ تعبيره.

وبالمثل قاومت "رانية" كل محاولات رضا لاستمالتها، وبما أظهرته من نِقاط ضعف أرادَ استغلالها لصالحه، إلا أنها أبت (لاحظ عندما ذهب إليها في البيت القصديري). علاوة على مقاومتها لأخيها فمع إعلانها للاستسلام والرضوخ لقراره بترك الدراسة، إلا أنها قاومت والتحقت بالمدرسة، وتكرَّر الموقف مرَّة ثانية عندما رفض زواجها من هذا الشَّخص وأراد تزويجها برجل من الجماعة التي انتمى إليها، إلا أنها قاومت بالفرار والزواج بمن تحب، وتحملت الظروف الصعبة في هذا الحي البائس، أما تحولها كما يبدو ظاهريًا (في النهاية) إلى شخصية–ضد بعملها كراقصة، وبزواجها من سعيد، لم يكن كاستسلام بقدر ما هو تدمير للآخر الذي يدَّعي البطولة والمقاومة، (لاحظ الألم الذي راح يقض مضجعه عندما كان يتخيَّل جسد رانية عاريًا ومستسلمًا للذئب سعيد) وأيضًا إدانة لزوجها الذي تخلَّى عنها وهرب إلى كندا.

تبدو شخصية رضا، في طورها الأول إشكالية برفضه لقناعات والده، وانخراطه في إحدى الجماعات التي كانت تناهض سياسات الرئيس، ثم مواجهة سلطة أبيه وإخفاقاته بالقراءة فصار يقرأ معظم الوقت ، كما أثبت ذات مرة أنه رجل بالفعل رغم أن أباه وصفه بالجبان يوم أن رفض أن يبوح لأبيه باسم الرجل الذي أهانه، وسخر من وظيفته. وبالمثل تَرْكه الدراسة كعقاب لوشايته برانية. لكن عوامل عدة أسهمت في أن يتحول إلى ضد، ومنها محيط الاستبداد، بدءًا من والده الجلاد، وما عانته منه زوجته، ومرورًا بالمنظمة التي سيطرَ رجالها عليه حتى شَعَرَ بأنه " مجرد غبار من دونهم، أيّ ريح هزيلة يمكنها أن (تقتلعه) من المكان الذي (يكون) فيه " (ص:161). وهو ما دفعه لأن يكون في "الضفة الآمنة من هذا العالم المتسيِّد، والمتمَكِّن" (ص:112) وفي مقابل هذا صار " عبدًا مأمورًا " كما قال بنفسه للرجل السَّمين، يُنَفِّذُ ما يُطْلَبُ منه، فلم يضع لنفسه حدًّا، فالشَّطارة كانت في إثبات وفائه لهم، وهو ما جَعَلَه يتقدَّم في سُلَّم الصُّعود إلى عالمهم، وما قابله من انهيار في مُثُلِه ومسلماته حتى تبلَّدت مشاعره، وتبخَّرت فكرة الضمير التي كان يعيش بها وهو شاب "كنت أنا الذي يرفض أي تنازل أو تخاذل فإذا بي أول من يتنازل، ويدخل الصف" (142).

ومع كونه يعترف على نفسه بأنه بالفعل تحوَّل، وصار مثل دمية النار التي تحرق مَنْ يمسكها، إلا أنه يتحوَّل إلى شخصٍ إيجابي في مسألتين الأولى: إنقاذه لعدنان صديقه عندما أرادوا أن يجندوه فقلَّل من شأنه، والثانية: رفضه لمسألة الزواج، وعند إلحاح أمه يجيبها باستنكار: "كيف أتزوج، ولماذا؟ يكفي أن والدي عذبنا بإنجابنا في هذه الحياة وداخل هذه البلاد؟ أما أنا فلن أكرِّر المهزلة ولن أعطي للعالم أطفالاً (يصبحوا) في لحظة من تاريخيهم مصاصي دماء أو من فصيلة آكلي لحم البشر، أو قتلة مثلي" (ص 141). ولكن القدر يعاقبه فيأتي عدنان ثمرة العلاقة الآثمة مع رانية. لذا كان استسلامه وصعوده الجبل رغم تحذير أحد الضباط بأنه فخ منصوب له، ربما مبعثه إيمانه القوي بمبادئ عم العربي، بأن الإنسان يدفع ثمن جرائمه بطريقة أو بأخرى فيقول: "لن يعيشوا في سلام مع أنفسهم، ذلك عقابهم في الدنيا" (129)، بل إن النص نفسه هو نتيجة لعدم السلام الذي لم يعشه رضا مع نفسه رغم ما حققه وجناه بعلاقته بهذا الجهاز السري. ملخص الحالة التي عايشها رضا في هذه الجملة التي قالها الأب ورددها على مسامعه الأخ الأكبر بعد عتابهما: "الروح هي الإنسان وعندما يفقدها يفقد إنسانيته" (144) وقد كان خسرها في رحلة تَرَقِيه المالي والوظيفي مع المنظمة.